● إن الديالكتيك الذى يقدمه لنا انجلز منهجاً حقيقياً أصيلا للفلسفة يرجع فى أصله إلى التأمل اللاعلمى للفلسفة القديمة ، وما لبث أن حل محله المنهج التحليلى للعلم الطبيعى الحديث .

● وبعد ذلك يذهب انجلز إلى أن التراث الديالكتيكى للفلسفة الألمانية أعقبته الفلسفة المادية الحديثة ، ولكننا لا نجد مثلا واحداً على هذه الفلسفة المادية الحديثة إلا فلسفة انجلز نفسه .

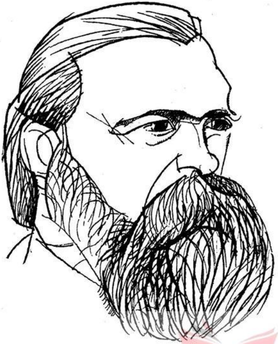
● إن الفيزياء تقود الناس فى طرق ضيقة ومسدودة ، مقلدة المسارات العادية الملتوية للطبيعة ، أما طرق الحكيم فهى واسعة فى كل مكان .

الماركسية ونقد

نصر

محمود رجب

هناك اتجاهات فى الفلسفة المعاصرة تتفق فيما بينها على نقد الميتافيزيقا ، رغم اختلافها الشديد فى وجهات نظرها العامة . وقد بلغ هذا النقد حداً لم تعد معه الميتافيزيقا تلقب — كما كانت تلقب فى الماضى — بملكة العلوم كلها ، وإنما هجرت كأنها امرأة زال جمالها ، وأخرجت من ميدان الفكر المحكم ؛ بدعوى أن أقوالها فارغة من المعنى ، ونودى برمى كتبها إلى النار ؛ لأنها عقبة فى سبيل تقدم المعرفة ومخدر يخدر أذهان الناس عن البحث والتفكير . ولكن هذا النقد يتسم بسمتين : أولاهما ، أنه نقد يجئ « من خارج »



الميتافيزيقا

الميتافيزيقا نفسها ؛ فهو يأتي إما من جانب العلم ، أو من جهة اللغة وبنائها ، أو من وجهة نظر الإدراك العام ، ويستهدف أول ما يستهدف القضاء على الميتافيزيقا وهدم أركانها . وهذا على العكس من نقد كانت أوهيدجر مثلا ، الذى يتميز بأنه نقد ينبثق « من داخل » الميتافيزيقا ، بل هو نفسه ميتافيزيقا ، مقصده الأسنى إحياؤها وتأسيسها على دعائم جديدة ثابتة . أما السمة الثانية فهى أن صلة أصحاب هذا النقد بالتراث الفلسفى واهنة ضعيفة ، ويتضح هـــذا عند تعرضهم لتاريخ الفلسفة لإثبات الدعاوي التى يزعمونها ؛ فيثبتون تفسيرات لبعض الفلاسفة أو لعصور معينة تدل على عدم اتصالهم الوثيق بهذا التاريخ ، وتكشف عن جهلهم بمقاصد الفلاسفة الذين يعرضون لهم إما كشواهد إثبات لأقوالهم أو كشواهد نفى لما يناقضها .

وإثباتاً لقولى هذا سوف أختار الاتجاه الماركسى من بين تلك الاتجاهات ، جاعلا اعتمادى على كتاب إنجلز « الرد على دوهرنج » (الترجمة الإنجليزية . موسكو – ١٩٥٤) ، وهو أحد الكتب الرئيسية التى لا يزال الماركسيون إلى اليوم يرددون ما فيه من آراء عن الميتافيزيقا :

المعروف عن الماركسية أنها قلبت فلسفة هيجل رأساً على عقب ؛ فبعد أن كانت الميتافيزيقا عند هيجل نسقاً للتفكير التأملى ، يتميز بالمثالية ، ويتخذ من الديالكتيك لحظة أو مرحلة ضرورية فى بنائه ، جاء الماركسيون وحوّلوا هذه النزعة المثالية إلى نزعة مادية ، وجعلوا العلاقة بين الميتافيزيقا والديالكتيك علاقة عداء وتقابل . وهذا ما عبر عنه إنجلز فى كتابه المذكور ، فذهب إلى أن الميتافيزيقا هى النظرية التى تنظر إلى الوجود على أنه مجموعة من الموضوعات المستقلة ، المنفصل بعضها عن بعض ، وترى الطبيعة مجرد حالات وظواهر ثابتة لا تتحرك ولا تتطور . أما الديالكتيك فهو — على العكس من الميتافيزيقا — المنهج الأوحد لتحصيل المعرفة ، ينظر إلى الوجود فى مجموعه ، بوصفه كلا ، ومن حيث هو نظام عضوى متناسق متطور :

وهنا نتساءل : كيف جاء إنجلز بهذه الفكرة عن التقابل بين الميتافيزيقا والديالكتيك ؟ وبأى تفسير لتاريخ الفلسفة قصر إنجاز الميتافيزيقا على مثل هذه النظرية الخاصة ، التى هى أبعد ما تكون عن الميتافيزيقا بمعناها الحقيقى ؟ يقول إنجلز ما نصه : « إن الفلاسفة اليونانيين كانوا جميعاً ديالكتيكيين بالطبيعة ، وخاصة أرسطو — هيجل العالم القديم — الذى حلّل الأشكال الأساسية للتفكير الديالكتيكى . أما الفلسفة الحديثة فعلى الرغم من أنها قد وجدت أنصاراً أقوياء للديالكتيك (مثل ديكارت واسبينوزا) ، فقد انغمست فيما يسمى بالطريقة الميتافيزيقية فى التفكير بتأثير من الفكر الإنجليزى على وجه الخصوص . وخضع أيضاً الفلاسفة الفرنسيون فى القرن الثامن عشر — على الأقل فى مؤلفاتهم الفلسفية — تحت سلطان هذه الطريقة الميتافيزيقية » (صفحتا ٣٢،٣٣) .

إن الدارس لتاريخ الفلسفة ليدرك ما فى كلام إنجلز من قطعية وقصور ؛ فصحيح أن أرسطو بحث أشكال التفكير الديالكتيكى ، ولكن لا يخفى على أحد مقدار تحقيره وحطه من شأن هذا الضرب من التفكير .

وتاريخ الفلسفة يبين لنا أن الفلاسفة اليونانيين كانوا ميتافيزيقيين بالطبيعة ، وأن الميتافيزيقا الحديثة وجدت من ديكارت واسبينوزا أقوى المدافعين عنها ، وأن الفلاسفة التجريبيين الإنجليز أنكروا هذه الميتافيزيقا واستبعدوها واستحدثوا طرقاً وصفية فى التفكير ، وأن ثمت تفكيراً مضاداً للميتافيزيقا ومناهضاً لها ساد فرنسا إبان القرن الثامن عشر .

ويذهب إنجلز إلى أن الظواهر التى تبدو لملاحظتنا العادية ما هى إلا علاقات وعمليات متبادلة ومختلطة اختلاطاً لانهائياً ؛ فكل شىء يظهر متحركاً ، متغيراً ، متحولا . ويعتقد أن أسلم طريقة لإدراك العالم وفهمه يمكن أن نجدها عند الفلاسفة اليونانيين ، وخاصة هرقليطس الذى قال بأن كل شىء موجود وغير موجود فى نفس الوقت ؛ ذلك أن كل شىء متحول على الدوام ، وفى سيرورة



(أو صيرورة) متصلة مستمرة . (ص٣٣) . وهذا فى الواقع هو ما أشار إليه هيجل عند عرضه لنظريته فى الديالكتيك . ولكن ، ماذا عن بارمنيدس ؟ ألم يكن هو الآخر فيلسوفاً يونانياً ، لا يقل أهمية عن هرقليطس ؟ إن إجمال هذا التقابل بين هرقليطس وبارمنيدس ، والقول بأن الفلاسفة اليونانيين كانوا على وجه العموم يأخذون بنظرية الحركة المستمرة يدل على قصور فى النظر وقطعية فى الرأى، أو هو — إذا جاز لنا أن نستخدم عبارة إنجلز نفسه — « اعتقاد ميتافيزيقى لا ديالكتيكى » .

ولكن ، على أى نحو يفسر إنجلز نشأة وتطور الفكر الذى ينظر إليه على أنه ميتافيزيقاً ؟ . لقد قال بأن الفلاسـفة اليونانيين (الذين يعدهم ديالكتيكيين بالطبيعة !) لم يفسروا الظواهر الفردية على الرغم من ادراكهم للطابع العام للكل . ومن ثم ظهرت الحاجة إلى بحث طبيعةهذه الظواهر والعلاقة التى تربط بينها بمعزل عن أوضاعها الطبيعية أو التاريخية . وكان هذا التحليل المجرد للظواهر هو موضوع العلم الطبيعى والبحث التاريخى، ولكن ، طالما أن مثل هذه الدراسة تتطلب — فيما يقول — جمعاً لمواد البحث فقد ظلت قاصرة لم تتطور عند اليونانيين . والعلم الطبيعى بمعناه الدقيق لم يحرز التقدم السريع إلا فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، على الرغم من أن باحثى مدرسة الإسكندرية القديمة ومفكرى العرب فى العصور الوسطى كانوا مهتمين بدراسة الطبيعة . والتطور الكبير الذى حدث خلال الأربعمائة سنة الأخيرة يتمثل فى دراسة الطبيعة دراسة تحللها إلى أجزاء مفردة ، وتقسم العمليات والمظاهر المختلفة إلى فئات محددة ، وتفحص داخل الكائن العضوى بتشريحه وتمزيق كيانه . وإلى هذا الحد لا اعتراض، ولكن الاعتراض يثور عندما يستطرد قائلا فان ثمة اتجاهاً نشأ فى حضن ذلك الجو العلمى ، أخذ يحلل الطبيعة إلى حالات ساكنة ، ثابتة لا تتغير ، جامدة لا حياة فيها ، منفصلة عن الكل . وعندما اُستخدم هذا المنهج التحليلى العقلى للعلم فى الفلسفة ، نشأت عندئذ الطريقة الميتافيزيقية فى التفكير . ويرى إنجلز أن بيكون ولوك هما اللذان قاما بنقل هذا المنهج التحليلى إلى ميدان الفلسفة ، ويعقب ذلك مباشرة العبارة التى لا يزال الماركسيون يرددونها إلى اليوم وهى : « إن الأشياء وانعكاساتها فى الذهن — أى التصورات . هى عند الميتافيزيقى ، أمور لا بد من النظر إليها على أنها منفصلة بعضها عن بعض ، وهى موضوعات للبحث ثابتة ، ومعطاة دفعة واحدة » (صفحة ٣٤ ، ٣٥) .

نتبين من هذا أن إنجلز لا يقصد بالميتافيزيقا نظرية الوجود ولا علما إلهيا ، ولا حتى طريقة قطعية استنباطية فى التفكير ، وإنما ينظر إليها على أنها طريقة للتفكير تنشأ نتيجة استخدام المنهج التحليلى للعلم الطبيعى الحديث فى الفلسفة . وبالطبع لم يذهب إلى الحد الذى يقول معه بأن العلم الحديث ميتافيزيقى. ولكن الأمر الذى يثير الدهشة ، هو قوله العجيب بأن أصل الطريقة الميتافيزيقية يكمن فى العلم الحديث بدلا من أن يوجد فى الفلسفة القديمة أو ديانة العصور الوسطى . وفى مقدورا لمرء أن يستنبط نتيجة لا يشوبها الخطأ هى : أن الديالكتيك الذى يقدمه لنا منهجاً حقيقياً أصيلا للفلسفة يرجع فى أصله إلى التأمل اللاعلمى للفلسفة القديمة ، وما لبث أن حل محله المنهج التحليلى للعلم الطبيعى الحديث . ولست أدرى ؛ بأى حق تسمى هذه النظرية نظرية تقدمية ؟ !

ولنترك التعجب جانباً ، ونناقش أقواله ، فان هذه الأقوال تفضى بنا إلى زعمه بأن طريقة التفكير التحليلى للعلم الطبيعى الحديث لا يمكن أن تستخدم فى الفلسفة ، فالديالكتيك بوصفه المنهج

الحقيقى للفلسفة ما هو بطريقة تحليلية علمية فى التفكير ، وإنما هو نظر إلى الأشياء بوصفها كلا : أو إن شئت قلت : إنه نظر تأملى ، وهذا تفسير قد يصدم الكثيرين من الماركسيين . ولكن قل لى : ما هو الفرق بين قوله « نظر إلى الأشياء بوصفها كلا » (أى فى مجموعها) والنظر التأملى ؟ الواقع أن لافرق يذكر .

فالآن يسود بين ماركسيى هذه الأيام إعتقاد بأن المادية التاريخية تشبه على وجه العموم، نظرة الإدراك العام التى تعارض الميتافيزيقا أو المثالية ، لذلك فهم يسخرون من الفلاسفة المثاليين المجانين الذين ينكرون وجود العالم الخارجى قبل ظهور الإنسان . ومن سوء حظ الماركسيين أن إنجلز يخذلهم فى اعتقادهم هذا ، إذ يرى أن النظرة التحليلية أو النظرة الميتافيزيقية تتمشى مع الإدراك العام . أما الديالكتيك فهو يناقض ويتجاوز الرأى العام المبتذل .

فانجلز يعتقد أن التفكير الميتافيزيقى الذى يعد الشئ إما موجوداً أو غير موجود ، ويستحيل أن يكون هو هو ، وآخر غير ما هو ، فى نفس الوقت — مثل هذا التفكير الميتافيزيقى يتفق مع نظرة الإدراك العام ، ويبدو لأول وهلة ، أنه صحيح وحق . ولكن إمعان النظر فيه يبين أنه ليس كذلك ، ولا يعبر عن الواقع ، ذلك أن الأشياء وانعكاساتها فى الذهن لابد من تناولها، أساساً فى علاقتها بعضها ببعض ، وفى حركتها ، ونشأتها وصيرورتها . وهذه العمليات ماهى إلا شواهد على صواب هذه الطريقة فى التفكير ؛ فالطبيعة أساس الديالكتيك ، تقدم قدراً من البينات كبيراً — يتزايد على مر الأيام — لإثبات أنها فى نهاية الأمر ديالكتيكية وليست ميتافيزيقية . (ص ٣٦) .

ويضرب إنجلز بالدارونية مثلا يوضح به وجهة نظره الجديدة ، فيزعم أن الفلسفة الألمانية الحديثة استخدمت المنهج الديالكتيكى فى نظرية التطور التى بدأت من نظرية كانت — لابلاس ، وبلغت تمام اكتمالها فى مذهب هيجل (صفحة ٣٧، ٣٨) .

يتضح من هذا أن إنجلز يقصد بالميتافيزيقا منهج العلم الطبيعى فى القرن الثامن عشر ، الذى ظهر بظهور الفلاسفة التجريبيين الإنجليز . أما الديالكتيك فهو المنهج الأصيل للفلسفة الألمانية . وكما رأينا بالنسبة لأرسطو ، نجد أنه يهمل ، بالنسبة لكانت، تقويمه السلبى للديالكتيك ، ويكاد يكون موضع تسليم فى تاريخ الفلسفة أن الأمة الألمانية هى — كما قال بحق هيدجر — «الأمة الميتافيزيقية على الأصالة» (المدخل إلى الميتافيزيقا . الترجمة الفرنسية . ١٩٥٨ . ص ٤٧) ، وأن الفلسفة الألمانية هى الوريثة الشرعية للميتافيزيقا ، وكانت بالذات كان اهتمامه الأساسى منصباً على تأسيس الميتافيزيقا وتدعيمها .

ولكن كيف تسنى لإنجلز أن يقول بمثل هذه الدعوى التى تناقض الواقع والمسلم به لدى الباحثين؟.



إن تصور إنجلز للميتافيزيقا ينتمى ، فى مضمونه ، إلى طريقة فى التفكير وضحها هيجل هى : التفكير بملكة الفهم . « فالفهم » عند هيجل ، ملكة للمعرفة التجريبية ، لا تصلح للاستخدام فى مجال الفلسفة التى هى الأساس فى معرفة الوجود المعقول فى كليته ومجموعه .ويعتقد أن هذا الاستخدام السيئ للمنهج العلمى فى الفلسفة هو السبب فى الديالكتيك ، أى المنطق العقلى السالب . وقد بيّن كانت من قبل التناقضات التى يزل فيها الإنسان لو استخدم ملكة الفهم وسيلة لإدراك موضوعات الميتافيزيقا مثل الله والحرية وخلود النفس . إن الفهم عنده أداة لتحصيل معرفة علمية صحيحة فحسب . ولقد وصف كومت كانت بأنه أعظم الميتافيزيقيين جميعاً ، ولكن الحق أن هيجل هو ، الميتافيزيقى الأعظم ، لا لأنه لم يكن ديالكتيكيا فهو نفسه الذى جعل من الديالكتيك منطقاً للميتافيزيقا وإنما لكونه فيلسوفاً تأمليا ، لا علميا ولأن منطقه لا يقوى « الفهم » على دركه . وعلى هذا يبدو غريباً أمر انجلز هذا ، الذى يعجب بهيجل لأنه أقام المنهج الديالكتيكى ، ويتجاهل تماماً أن هيجل هو نفسه الذى أكمل بناء الفلسفة التأملية ، إن الديالكتيك لا معنى له عند هيجل إلا بوصفه حافظاً للميتافيزيقا وحاميا لها . ثم أليس هو القائل بأن الإنسان — من بين سائر الكائنات جميعاً — هو الميتافيزيقى بالطبيعة ، وأن الأمة بلا ميتافيزيقا كالمعبد بلا إله ؟

وبعد ذلك ، يذهب إنجلز إلى أن التراث الديالكتيكى للفلسفة الألمانية أعقبته الفلسفة المادية الحديثة . ولكننا لا نجد مثلا واحداً على هذه الفلسفة المادية الحديثة إلا فلسفة إنجلز نفسه ؛ لأن الفلاسفة الماديين الآخرين من أمثال فويرباخ وبخنر Büchner ، ومولیشوت Moleschott أو هيكل Häckel يتقدمهم بعنف إما لأنهم غير ديالكتيكيين أو لأنهم سطحيون ساذجـــون . وعلى أى حال ، فهذه الفلسفة المادية الحديثة هى عند إنجلز ديالكتيكية فى جوهرها ، ولم يبق ثمت حاجة إلى فلسفة تجاور وتجاوز العلوم الخاصة ، ذلك أنه عندما يتحتم على كل علم أن يوضح وضعه فى الإطار العام للأشياء ومعـــرفة الواقع فعندئذ يصبح وجود علم خاص بهذا الإطار العام أمراً غير ضرورى ، ولا يبقى من بين جميع المباحث الفلسفية فى الماضى إلا مذهب الفكر وقاعدته ، أى المنطق الصورى والديالكتيك ، أما المباحث الأخرى فتدخل ضمن نطاق العلوم الوضعية للطبيعة والتاريخ (ص ٤٠) . ها هنا يصل تفكير إنجلز إلى أقصى درجات الاختلاط والإضطراب ، فلماذا يصبح العلم الخاص بالإطار العام غير ضرورى ، عندما يتحتم على كل علم أن يتأمل فى وضعه ؟ وهل معنى هذا أن وضع العلم قد يتحدد بذاته دون مساعدة من أية نظرية للمعرفة ؟ ولكن التأمل فى الإطار العام للأشياء والفكر مختلف تماما عن أى علم من العلوم الخاصة هل الديالكتيك هو كالمنطق الصورى ، عـــلم المعرفة ، أم أن علم المعرفة مقصور على المنطق الصورى ؟ .

وإذا كان الديالكتيك شيئاً أكثر من علم المعرفة ، كأن يكون علم تطور الوجود ؛ فلماذا لا يكون علما وراء العلوم الخاصة ويتجاوزها ؟ ، لماذا لا يسمى ميتافيزيقا أو أنطولوجيا ؟ . وإذا كان الديالكتيك علم الفكر أيضاً ، وإذا كان هو وحده القادر على بعث الحياة فى رفات المباحث الفلسفية الأخرى ؛ فما هو الفرق إذن بين إنجلز والكانتيين الجدد الذين يذهبون إلى أن الفلسفة ما هى إلا نظرية المعرفة ؟ . وإلى جانب ذلك تتساءل

ما هى العلاقة بين المنطق الصورى والديالكتيك ، وما هى الرابطة بين هذين النوعين من المنطق ومنهج العلوم الوضعية ؟ هل الديالكتيك هو الطريقة الديالكتيكية للتفكير ، أم أنه التأمل العلمى حول هذه الطريقة من التفكير ، أم أنه – بمعنى أصح – قانون الوجود ؟ .

وبما أن الديالكتيك يسمى علم القواعد العامة التى تتعلق بحركة وتطور الطبيعة والمجتمع والفكر ، فيبدو أنه يعنى الوعى التأملى بقانون الحركة والتطور الذى يتحكم فى عالم الواقع والفكر . وعلى هذا ، فهو بمثابة ابستمولوجيا وأنطولوجيا ، ولا يختلف عن فلسفة كانت الترنسندنتالية أو منطق هيجل الموضوعى ؛ ولا فرق بينه وبين الميتافيزيقا بمعناها الصحيح . ولكن ، إذا كان الديالكتيك – بناء على هذا – ابستمولوجيا وانطولوجيا فى نفس الوقت ، فما هى تلك العلوم التى تسمى علوماً وضعية ؟ . وإذا لم يكن الديالكتيك هو علم قانون الحركة والتطور فى الطبيعة والتاريخ ، فأى نوع من المعرفة هو ؟ . وإذا كان الديالكتيك يجاور العلوم الوضعيــة ، فما هو منهج العلوم الوضعية ، وكيف يحكمها الديالكتيك ؟ . باختصار ما معنى المصطلح « علم وضعى » ؟ وكيف يتميز عن المنهج التحليلى للعلم الحديث منذ بيكون ، أى ما يسميه إنجلز تفكيراً ميتافيزيقياً ؟ . كل هذه الأسئلة لا نجد عنها – للأسف – جواباً شافياً عند إنجلز . وقد تبينا من قبل كيف أن تصور إنجلز للميتافيزيقا تصور ضيق وخاص وغريب . وسواء نشأ هذا التصور عن جهل إنجلز بتاريخ الفلسفة أو عن سوء فهمه له ، فقد أصبح الآن معتنقاً لدى الماركسيين جميعاً ، الذين ينظرون إلى أقوال إنجلز على أنها نصوص مقدسة لا يتناولونها بالمناقشة والمراجعة . ونحن لا يسعنا إزاء هذا إلا أن نقرر – للمرة الثانية – أن هذا التصور قاصر وقطعى ، وأن كلمة « ميتافيزيقا » تستخدم إستخداماً خاصاً ، فهى تدل على نظرة إلى العالم من خلال التفكير التحليلى المجرد لملكة الفهم ، وهى نظرة تنكر الحركة والتغير ، جاءت نتيجة سوء تطبيق المنهج العلمى على الفلسفة ، على يد بيكون ولوك وڤولف ، ووجدت ممثلين ومعتنقين لها فى الفلسفة الفرنسية فى القرن الثامن عشر .

فما هو أصل هذه النظرة الخاصة للميتافيزيقا ؟ ربما يكون إنجلز قد أساء فهم ما أطلق عليه هيجل اسم « الميتافيزيقا السابقــة » ، أى تلك النظريات الميتافيزيقية التى تقع فى التناقض خلال محاولتها إدراك الوجود المطلق بواسطة ملكة الفهم – وذلك بأن تسرّع فى التقاط كلمة « ميتافيزيقا » عموماً ، وغض النظر عن وصف « سابقــة » .

وهيجل شخصياً غير مسئول عن هذا الخلط ؛ فهو غالباً ما ينقد بشدة ميتافيزيقا الفهم ، وهو دائماً صريح فى وصفها بأنها « سابقة » و « قديمة » ، أو « تعتمد على الفهم » .

ولكن ، إذا كانت



هناك مسئولية (سلبية بالطبع) تقع على هيجل فهى تتمثل – فى المقام الأول – فى تسمية ميتافيزيقا باسم مثالية الفلسفة التأملية، بدلا من أن يسميها صراحة الميتافيزيقاالتأملية أو الميتافيزيقا الديالكتيكية. ومن المحتمل أن يكون هيجل قد آثر هذه التسمية؛ لأن الميتافيزيقا فى نسقه الفلسفى العام اندرجت تحت المنطق وفقــدت استقلالها (أنظر تصدير الطبعة الأولى من «علم المنطق»). ولكن اندراج الميتافيزيقا تحت المنطق لا يجب أن يختلط بتقابل الميتافيزيقا والمنطق (ديالكتيكياً كان أو تأملياً). علاوة على ذلك، لا بد من تأكيد أن الميتافيزيقا لا يمكن أن تذوب فى المنطق إلا فى الفلسفة المثالية التى توحد بين التصورات والواقع، لا فى الفلسفة المادية التى تنظر إلى الواقع على أنه ذو طابع مادى. ونتيجة لهذا لا بد للفلسفة المادية أن تجعل المنطق تابعاً للميتافيزيقا.

ومسئولية هيجل عن هذا الخلط تتمثل – ثانياً – فى أنه استخدم كلمة واحدة هى «ميتافيزيقا» للدلالة على الميتافيزيقا بوصفها فرعاً من فروع الفلسفة، وللدلالة على نظرية معينة. ولكن، كان يجب عليه أن يميز الميتافيزيقا عن النظريات الميتافيزيقية وعن نظريات الميتافيزيقا؛ فالأولى فرع من فروع الفلسفة، والثانية أمثلتها الخاصة، أما الثالثة فتقوم على تأملات حول الميتافيزيقا. مثل كتاب كانت «نقد العقل الخالص». والحق أن غموض هذا المصطلح أمر مشترك بين الفلاسفة الألمان عموماً، وهيجل ليس وحده المسئول عنه. ولسنا فى حاجة إلى أن نقول بأن هيجل لم يرتكب غلطة كبيرة كتلك التى ارتكبها إنجلز عندما قال بأن ديكارت فيلسوف ديالكتيكى، وأن بيكون مؤسس التفكير الميتافيزيقى، لقد تحدث هيجل فى «محاضراته عن تاريخ الفلسفة» تحدث عن التفكير التجريبى والوضعى عند بيكون ولوك بلهجة ملؤها الاحتقار العميق، دون أن نخفى تعصبه القومى ضدهما. ويذهب إلى أننا قد نجد ضرباً من الميتافيزيقا فى فلسفة لوك، ولكن سياق كلامه يبين – بوضوح كاف – أن مقصده كان بعيداً عن مقصد إنجلز الذى نسب إلى هذين المفكرين التجريبيين طريقة ميتافيزيقية فى التفكير. ولكى نفهم نقد إنجلز لبيكون يجب علينا أن نرجع القهقرى ونفحص رأى بيكون فى الميتافيزيقا.

رد على إنجلز

قسم بيكون فى كتابه «قيمة التعلم والنهوض به» (مؤلفات بيكون الفلسفية. لندن. ١٩٠٥) المعرفة الإنسانية إلى إلهيات وفلسفة. الإلهيات تهبط من عل، وهى تُوهب عن طريق الوحى الإلهى. أما الفلسفة فتطلع من تحت، وهى تُتعلم وتكتسب بواسطة نور الطبيعة، أى العقل البشرى. وفى الفلسفة إما أن يصل تأمل الإنسان إلى إدراك الله، أو يوجه نحو الطبيعة، أو ينعكس على نفسه. وانقسمت الفلسفة – تبعاً لهذا – ثلاثة فروع: الفلسفة الإلهية، والفلسفة الطبيعية، والفلسفة الإنسانية أو الإنسانيات. (ص ٨٩).

والفرع الأول يسمى كذلك لاهوتاً طبيعياً، فهو «إلهى» لأن موضوعه هو الله، و «طبيعى» لأن هذه المعرفة نحصل عليها بواسطة نور الطبيعة. والفرع الثانى هو الفلسفة الطبيعية، أى معرفة الطبيعة. وتنقسم قسمين فرعين: نظرى وعملى. القسم الأول يهتم ببحث العلل، والثانى يهتم باحداث النتائج والقسم النظرى من الفلسفة الطبيعية ينقسم إلى فيزياء خاصة وميتافيزيقا. وها هنا نقابل تصور بيكون للميتافيزيقا. وهو يوضح باستخدامه لهذا المصطلح القديم على نحو يختلف عن الاستخدام المألوف عموماً، – إنه يريد أن يتبع القدماء

ويحتفظ بالمصطلح القديم ولكن بمعنى مختلف (ص ٩٣) . وهناك فى تاريخ الفلسفة أمثلة عديدة على التناول الإتفاقى للمصطلحات . بيد أن مثل هذا التغير فى معنى المصطلح مصدر كثير من اضطراب الفكر واختلاطه . والدراسة التاريخية فى الفلسفة مثقلة بمهمة تحـديد المصطلحات لكى تقضى على هذا الاضطراب الفكرى .

إذن ، الميتافيزيقا بوصفها قسماً خاصاً من أقسام الفلسفة الطبيعية تهتم بالطبيعة ، ولا شيء غير الطبيعة ، ولكنها تهتم بأسمى أجزاء الطبيعة وحسب ، فهى تعنى — على العكس من الفيزياء التى تتناول ما هو كامن فى المادة ، وبالتالى تكون عابرة موقتة — بما هو أكثر تجريداً وثباتاً . وبينما تفترض الفيزياء فى الطبيعة الوجود والحركة والضرورة الطبيعية ، نجد أن الميتافيزيقا تفترض أيضاً الذهن والفكرة . وبما أننا رأينا ان الجزء الخاص من الفلسفة الطبيعية المقابل للميتافيزيقا يسميه بيكون الفيزياء الخاصة ، فإننا نستطيع أن نستدل بسهولة أن الميتافيزيقا الجديدة ترادف الفيزياء العامة .

لقد انقسمت الفلسفة الطبيعية إلى بحث فى العلل وإحداث للنتائج . ووصف القسم الأول بأنه نظرى . وبما أن القسم النظرى للفلسفة الطبيعية ينقسم إلى فيزياء خاصة وميتافيزيقا ، فلا بد أن يكون الاختلاف بين هذين الفرعين من الفلسفة النظرية راجعاً إلى الاختلاف بين أنواع العلل التى تبحثها هذه العلوم . وهنا يستخدم بيكون تصور أرسطو للعلل الأربع . ويقول بأن الفيزياء تبحث وتتناول العلتين : المادية والفاعلة ، أما الميتافيزيقا فتتناول العلتين : الصورية والغائية . وقد نظر بيكون إلى العلتين : المادية والفاعلة على أنهما غامضتان ومتغيرتان .

أما بالنسبة للعلة الصورية التى هى الموضوع الأول للميتا فيزيقا ، فقد عدَّ بيكون أفلاطون محقا فى جعلها الموضوع الحقيقى للمعرفة ، ولكنه كان مخطئاً فى النظر إلى الصور على أنها مجردة تماماً من المادة ، وكان هذا الخطأ هو الذى جعله ينحرف نحو تلك التأملات النظرية التى اصطبغت بها كل فلسفته الطبيعية (ص٩٤) .

إن صور الجواهر عند بيكون هى من التعقيد والتركيب بحيث انه من العبث أن نبحثها وإن كان هذا البحث ممكناً ، فيجب أن نؤجله بعض الوقت ولا نقوم به إلا عندما نكون قد بحثنا وكشفنا الطبائع الأبسط . إن البحث فى صورة الأسد والذهب لا صورة الماء أو الهواء ، بحث هباء لا جدوى منه . أما البحث فى صورة الكثيف والخفيف ، الحار والبارد ، والثقيل والخفيف ... الخ بحث لا بد منه ، فهذه الصور التى هى من الطبقة الأولى قليلة العدد كحروف الأبجدية . ومع ذلك تؤلف الماهيات وصور جميع الجواهر ، والبحث فى هذه الصور هو موضوع الميتافيزيقا وعلى الرغم من أن بيكون يجد هـذا القسم من الميتافيزيقا قاصراً ، فهو يعتقد أنه القسم الأسمى ، لاعتبارين : الأول لأنه مختصر وموجز ، يتبع طرق التجربة التى هى واجب على كل معرفة ومزيتها . والثانى لأنه يمكن الناس من الحصول على الحد الأقصى من الحرية ، ويتيح لهم استخدام هذه الحريه فى أوسع المجالات وأشدها تركيزاً ، « إن الفيزياء تقود الناس فى طرق ضيقة ومحدودة ، مقلدة المسارات العادية الملتوية للطبيعة ، أما طرق الحكيم فهى واسعة فى كل مكان » (ص ٩٥) .

والقسم الثانى من الميتافيزيقا هو البحث فى العلل الغائية . وهذا القسم — فيما يرى بيكون — لم يهمل . وإنما وضع فى غير مكانه فحسب ؛ فينظر إليه على أنه فى الفيزياء لا فى الميتافيزيقا . وبيكون يرفض ذلك ، لأن إدخال العلل الغائية فى مجال الفيزياء قضاء عليها . وهذا لا يعنى أن بيكون يرفض العلل الغائية أو ينكر البحث التأملى

فيها ، وإنما يريد أن يبقى على مجالها الخاص وهو الميتافيزيقا . (ص ٩٦)

هذا ملخص رأى بيكون فى المعرفة عموما والميتافيزيقا خصوصاً . وبعد ذلك نتساءل :

هل نقد إنجلز الميتافيزيقا موجه إلى تصور بيكون للميتافيزيقا ، أى إلى الفيزياء العامة بدلا من أن يوجه إلى الميتافيزيقا التقليدية ؟ أم أن إنجلز كان ينقد فى الواقع منهج بيكون فى مجموعه ؟ لننظر فى الأمر لنرى إن كانت ميتافيزيقا بيكون تستحق اتهامات انجلز وانتقاداته أم لا .

إن وصف بيكون للميتافيزيقا بأنها بحث فى الصور الثابتة والعلل الغائية ، وخاصة فكرته التى مؤداها أن الميتافيزيقا تتناول الصور الثابتة والمجردة ، فى مقابل الفيزياء التى تتناول الأشياء المادية التى تتغير ، قد يبرر نقد إنجلز له . ولكن بما أن هذا التمييز قد وجد أيضاً عند أرسطو ، الذى يبجله إنجلز ويصفه بأنه إمام الديالكتيكيين ، فمن غير الإنصاف ولا العدل أن يلام بيكون وحده على قوله بنفس التمييز الذى قال به أرسطو . فضلا عن أن بيكون كان يرى أن الميتافيزيقا يمكن مقارنتها بالفيزياء ، فهو لم يقل بثبات الطبيعة وعدم قابليتها للتغير ، ولم يهمل ملاحظة الأشياء الملموسة المتحركة فى العالم .

صحيح أن الصور التى جعلها موضوع بحث الميتافيزيقا صفات أولية أكثر منها صوراً للجواهر . ولكن يجب أن نذكر له استخدامه للمنهج التحليلى ؛ فهو محق تماماً فى أن يذهب إلى أن صور الجواهر ، من الصعب بحثها . ولا بد من تأجيل هذا البحث حتى تتضح الصور الأولية المجردة والتى تؤلف صــور الجواهر ذلك أن البحث بدون تحليل لصور الجواهر للموسة العينية مثل الأسد ، لابد وأن يخفق كما حدث لنظرية أفلاطون فى المثل، التى ضاعفت من عالم الظاهر . وهناك شك فى أن ديالكتيك إنجلز الذى ما هو إلا إدراك للوجود فى مجموعه ، بحث يهتم بصور الجواهر كنظرية أفلاطون فى المثل ؛ فإنجلز قد ذهب — كما رأينا — إلى أن التأمل اللا علمى عند اليونانيين القدماء الذين هم ديالكتيكيون بالطبيعة ، لم يفسر الظواهر الفردية ، وإذا وجه مثل هذا التأمل إلى الوجود فى مجموعه ، فإنه يستحق إسم ديالكتيك ، ولكنه يكون بذلك شبيهاً بالحدس الصوفى ، أى أقل فى المرتبة من المنطق التحليلى لملكة الفهم ، بدلا من أن يكون منطقاً للعقل . إن الديالكتيك يقوم حقيقة على القضاء على التقابلات المتناقضــة ولكن لن يكون تمت رفع ديالكتيكى حقيقى بدون تقابل سابق ؛ فالإدراك المبــاشر للوجود فى مجموعه ، حيث لا تتوسطه التحديدات الثابتة للفهم ، سيؤدى ضرورة إلى الصوفية . إننا قد نسميه ضرباً من التأمل ، ولكنه ما هو بديالكتيك على الإطلاق . فضلا عن أن ميتافيزيقا بيكون مجرد فرع من فروع الفلسفة الطبيعية وحسب . وبالطبع ، لانستطيع أن نجد ديالكتيكا عند بيكون ، ولكننا لا نستطيع أن نحكم على فلسفته فى مجموعها بأنها لا ديالكتيكية وميتافيزيقية ، على أساس أن فرعا معينا من الفلسفة الطبيعية يهتم أساسا بتحليل الصور .

وميتافيزيقا بيكون تقابل العلم الطبيعى الميكانيكى طالما أنها تهتم ببحث العلل الغائية . ولكن إنجلز نفسه يعارض أيضاً النظرية الميكانيكية ، ويصفها بأنها ميتافيزيقية . لذلك فنقده لبيكون لايمس هذه النقطة . وبما أن بيكون يرى أن النظرة الميكانيكية يمكن مقارنتها بالنظرة الغائية ، فلا يمكننا — بناء على هذا — أن نقول بأن ميتافيزيقاه غائية . وبما أن الديالكتيك يرمى إلى رفع النظرية الميكانيكية والغائية ، فلا بد أن ننظر إليه على أنه تطور لفكر بيكون أكثر منه معارضة له .

أما بعد ، فان العمل على تقويض كل شئ فى مجال من مجالات الفكر الأساسية كالميتافيزيقا ربما كان على حد تعبير هيدجر أمراً يثير الضحك ولا معنى له » .

محمود رجب